

تَضَارَبَتِ الآرَاءُ حِينَ أُعْلِنَ خَادِمُ بِنِ زَاهِرٍ اسْتِيَاءَهُ مِنْ حُسَيْنٍ صَاحِبِ (البوم) قَائِلًا: «إِذَا أَنْ تُعْطِينَا حَقُوقَنَا كَامِلَةً،». مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَمِّنَ لُقْمَتَهُ وَوَقْمَةَ عِيَالِهِ مِنْ صَيْدِ السَّمَكِ. يَتَّبَعُونَ عَنْهُ كَمَنْ أَصَابَهُ الْحَرْبُ، يَحْمِلُ شِبَاكَهُ عَلَى ظَهْرِهِ مُتَطَاهِرًا بِاللَّامِبَالَةِ، كَانَتْ تَنْبِيَهُ تَوَدُّ أَحْتَهَا مِيرَةَ زَوْجَةَ ابْنِ زَاهِرٍ، وَتَحْرِصُ عَلَى زِيَارَتِهَا، فِي كُلِّ مَسَاءٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَكَانَتْ تَصْطَحِبُ مَعَهَا ابْنَهَا عَبْدَ اللَّهِ ذَا الْأَعْوَامِ الثَّمَانِيَةَ لِيَلْعَبَ مَعَ وَوَلَدِي حَالَتِهِ سَلِيمَةَ الَّتِي تَكْبُرُهُ بِأَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ، رَيْثَمَا تَذْهَبُ الْأَخْتَانُ إِلَى بَيْتِ عَمَّتَيْهِمَا عَوْشَةَ؛ حَيْثُ يَتَسَامَرُ الثَّلَاثُ حَتَّى بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثُمَّ تَعُودَانِ لِتُحَرِّجَ أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلَدَهَا وَهُوَ فِي حَالَةٍ أَقْرَبَ إِلَى النَّوْمِ مِنْهَا إِلَى الْبِقِظَةِ. هَكَذَا كَانَتْ تَمْضِي أُمْسِيَاتُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرِ، كَمَا كَانَ يُنَادِيهِ ابْنُ زَاهِرٍ، عَدَا الْأُمْسِيَّاتِ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا وَالِدُهُ قَدْ عَادَ مِنَ السَّفَرِ، فَهُوَ يَأْتِي وَحْدَهُ إِلَى بَيْتِ حَالَتِهِ مِيرَةَ، يَقْضِي الْأَطْفَالَ لِيَلْتَهُمْ يَلْعَبُونَ مَلِكًا أَوْ وَزِيرًا بَأَن يَفْذِفَ أَحَدُهُمْ عَلْبَةً كَبْرِيَةً فِي الْهَوَاءِ، فَإِنْ سَقَطَتْ عَلَى رَأْسِهَا كَانَ الْقَازِفُ مَلِكًا، فَيَحْكُمُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ بِالضَّرْبِ، وَيَقُومُ الْوَزِيرُ بِتَنْفِيذِ الْعُقُوبَةِ. تَدُورُ الْعَلْبَةُ عَلَى الثَّلَاثَةِ فَيَنْتَقِلُونَ بِبَسَاطَةٍ شَدِيدَةٍ مِنْ مَلِكٍ إِلَى وَزِيرٍ إِلَى لَصِ. - تَهْدَهُمْ - أَتَمْنَى لَكُمْ نَوْمًا هَانًا. بِسَلَامٍ اقْتَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْبَحْرِ تَأْهَبُ مِيرَةَ لِإِنْجَازِ أَعْمَالِهَا كَعَادَةِ أَهْلِ الْبَلَدِ، وَقَبْلَ الرَّحِيلِ إِلَى مَنَازِلِ الصَّيْفِ. لِتَقْتَرِشَ الْحَصِيرَ فِي صَحْنِ الْبَيْتِ، وَتَرْتَبَ عَلَى أَحَدِ أَطْرَافِهِ طَيَّاتِ فِرَاشِ النَّوْمِ، لِذَلِكَ. وَيَالْقُرْبَ مِنْهُ تَغْرُزُ عَلْبَةُ الصَّفِيحِ فِي الرَّمْلِ، وَهُوَ يُهْمَمُ سَاصِنُ وَاحِدَةً مِثْلَهَا بِهِذِهِ الْجِبَالِ، قَمِ وَاصْطَدْنَا بَعْضًا مِنَ السَّمَكِ. - اتَّفَقَتْ مَعَ يَوْسُفَ عَلَى ذَلِكَ، يَهِيْمُ فِي الطَّرْفَاتِ، يَقُولُ كَلَامًا غَيْرَ مَفْهُومٍ، - نَحْنُ نَفْهَمُهُ - . وَظَلَّ يُتَابِعُ مَا بَدَأَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، كَانَ يَتَأَمَّلُ عَوْدَةَ وَالِدِهِ مِنَ السَّفَرِ، وَكَانَ مُبَارَكٌ قَدْ رَافَقَ أُخْتَهُ لِعِبَادَةِ صَدِيقَتِهَا هُدَايَةَ، غَادَرَتْ الْمَرَاتَانَ إِلَى عَمَّتَيْهَا، تُطَرِّزُ نَفْسَهَا بِنُجُومٍ فَضِيَّةٍ، وَهِيَ تَلْحَفُ الْأَرْضَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ، وَقَدْ خَضَعَ ( الْفَرِيحُ ) لِصِمْتِ مُنْعَبٍ، تَغَلَّبَ عَلَيْهِ حِوَارُ الرَّجُلِ وَالطِّفْلِ. وَيَصْدُرُ مِنْ عَادَاتِ ابْنِ زَاهِرٍ عِنْدَمَا يَسْرُحُ بِفِكْرِهِ، صَوْتًا يُشْبِهُ زَهْرَقَةَ الْعَصَافِيرِ. تَعَلَّمَهُ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي الْبَحْرَيْنِ: «الْمَجْدُ لِلْفُقَرَاءِ». وَاسْتَمَرَ يُصْدِرُ زَهْرَقَةَ الْعَصَافِيرِ وَهُوَ يَشْفِطُ مَا تَبَقِيَ مِنْ سَمَكِ الْعِشَاءِ بَيْنَ أَسْنَانِهِ، فَعَلَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْحَرِّ وَظَلَّ الصَّغِيرُ يُصْغِي لِتَغَايِ الْمَاعِزِ وَالْخِرْفَانِ فِي طَرْفِ الْحَوْشِ. أَرَادَ أَنْ يَنْسَى، لَمْ يَكْتَرِثِ الصَّبِيُّ لِمَا حَدَّثَ، وَظَلَّ يُتَابِعُ ابْنَ زَاهِرٍ فِي صَمْتٍ عَمِيْقٍ، وَقَدْ أَسْنَدَ نَفْسَهُ لِلصَّغِيرِ إِلَى رُكْبَتِهِ وَكَأَنَّهُ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلتَّخِيلَاتِ. أَخَذَتْ النِّشْوَةَ ابْنُ زَاهِرٍ، فَانْقَلَبَ مُنْكَبًا عَلَى بَطْنِهِ، أَوْ نَائِمًا عَلَى جَنْبِهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ عَلَى رَاحَتِهِ، حَتَّى أَخَذَتْهُ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ. وَتَدْرَعُ الصَّغِيرُ بِالصَّبْرِ، وَقَدْ اِكْتَفَى بِأَن يَنْظُرَ إِلَى النَّائِمِ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا كَمَا كَانَ إِلَى أَنْ قَفَزَ خَادِمٌ فَجَاءَهُ، وَسَأَلَ الصَّغِيرَ الْوَاحِمَ: « أَلَمْ يَأْتِ بِعَدُوٍّ! رَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بِتَنَاقُلٍ: لَيْسَ بَعْدَ يَا أَبْتَاهُ عَاوِدَتُهُ نَوْبَةُ الزَّهْرَقَةِ، وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ مُشِيرًا بِيَدِهِ إِلَى الْمِدْيَاعِ أَلَمْ تَنْتَهَ هَذِهِ ( الْغَايَةُ ) وَرَدَّ الصَّغِيرُ فِي شِبْهِ لَا تَخْلُصُ بِسُرْعَةٍ. لَا تَعْرِفُ شَيْئًا». - كَانَتْ غَلْطَةٌ مِنَ الصَّغِيرِ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ فَلَتَتْ مِنْهُ فَصَرَخَ ابْنُ زَاهِرٍ فِي وَجْهِهِ: «مَا تَقُولُ يَا جَاهِلُ؟». اعْتَدَلَ الرَّجُلُ فِي جَلْسَتِهِ، وَأَخَذَ نَفْسًا عَمِيْقًا إِلَى أَنْ هَدَأَتْ حَالَتَهُ وَنَسِيَ، فَأَخَذَ يَتَلَفَّتُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الْيَسَارِ، ضَحِكَ الرَّجُلُ وَقَالَ: «أَعْطَيْتَنِي الْبِحْلَةَ لِأَشْرَبَ. لَمْ يُحَاوِلِ الصَّغِيرُ. «هُهْ. قُلْ أَجِيرٌ عِنْدَ حُسَيْنٍ فِي بَوْمِهِ الْمَبْنِيِّ عَلَى السُّحْتِ. تَرَكَتَنِي الْكَلْبُ أَكَابِدُ الْحُزْنَ بَعْدَ أَنْ غَمَرَنِي بِالْدِيُونِ». صَاحَتْ أُمَّ كَلْتُومِ فِي غَفْوَةِ الْكَلَامِ أَعْطَيْتَنِي حُرِّيَّتِي أَطْلُقْ يَدِي. لَكِنَّهُ لَيْسَ لَيْسَ كَوَجَعِ الدَّاءِ، إِنَّهُ أَشَدُّ». بِالطَّبِيعِ لَمْ يَفْهَمِ الصَّغِيرُ، لَكِنَّهُ أَحْسَّ بُوخَزَاتٍ مِنَ الْأَلَمِ وَظَلَّ الْإِثْنَانِ فِي صَمْتٍ وَخُشُوعٍ حَتَّى أَنْهَى اللَّغَايَةَ أَغْنَيْتَهَا! وَقَالَ الْمُدْبِعُ: تُصْبِحُونَ عَلَى خَيْرٍ»، فَتَأَوَّهُ ابْنُ زَاهِرٍ وَقَالَ: «أَهْ مِنَ الْقَيْدِ أَيُّهَا الرَّجَالُ»، وَتَضَارَبَتِ الْإِذَاعَاتُ، مَدَّ حَادِمٌ يَدَهُ فَاسْكَتَ الْخَشْخَشَةَ، مَا يَدْرِي اقْتَرَبَ الطِّفْلُ. فَأَجَابَ الطِّفْلُ «أَسْمَعُ عَنْهُ، مَا الظُّلْمُ يَا أَبْت؟»، فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ تَجَاعِيدِ وَجْهِهِ: «الظُّلْمُ هُوَ أَنْ يَوْجَدَ فِينَا وَاحِدًا مِثْلَ حُسَيْنٍ، هُوَ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ وَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ مَا نَسُدُّ بِهِ الرَّمْقَ. وَأَرْدَفَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الصَّبِيِّ بِسَبَابَتِهِ: اسْمِعْ مِنِّي يَا وَلَدِي هَا هُوَ أَبُوكَ يَدُورُ كَالنُّورِ الْمَرْبُوطِ فِي ( الْمَنِيورِ ) مِنَ الْهِنْدِ إِلَى إِفْرِيْقِيَا إِلَى الْمَمْلَكَةِ، يَصُبُّ الْخَيْرَ فِي جُوعِيَةِ حُسَيْنٍ وَيَزِدَادُ أَبُوكَ فَقْرًا عَلَى فَقْرِهِ، وَدَيْنًا عَلَى دَيْنِهِ وَعِنْدَمَا يَمْلُ مِنْهُ، سَيَفْذِفُ بِهِ فِي الْبَحْرِ، وَلَكِنْ لَا تُكُنْ ثَوْرًا يَدُورُ لِصَالِحِ أَحَدٍ فَالْقَيْرَانُ يَجِبُ أَنْ تَتَّحِدَ لِصَالِحِهَا الْمُشْتَرَكِ». كَانَتْ الثَّوَانِي تَحِيكُ حَبَائِلَهَا، فَهَا هُوَ النُّورُ الْمَجْدُورُ يَتَفَجَّرُ كَالْحِمَمِ، أَحْسَّ بِدَوَارٍ شَدِيدٍ. مَادَتْ بِهِ الْأَرْضُ. سَقَطَتْ السَّمَاءُ بِفِضْيَانِهَا عَلَى الْأَرْضِ. ارْتَفَعَ نَعَاءُ الْجِدَاءِ يَدُقُّ فِي رَأْسِهِ الْمَعْطُوبِ كَنَاقُوسٍ ضَحَمَ تَصَدَّعَ رَأْسُهُ، صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «آخِ الصُّدَاعِ. وَلَمْ يَحْضُرْ حُسَيْنٌ صَاحِبُ الْيَوْمِ،